

مغاربة العصر الوسيط والبحر: نقد للكتابات الكولونيالية.
Medieval Moroccans and the Sea : A Critique of Colonial
Writings.

اسم ولقب المؤلف المرسل: الطاهر قدوري - Kaddouri Tahar صص 286-299

الدرجة والعنوان المهني: أستاذ التعليم العالي مؤهل- المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق- وجدة- المملكة المغربية/ البريد الإلكتروني: taharkaddouri@hotmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2021/03/07 تاريخ المراجعة: 2021/04/18 تاريخ القبول: 2021/05/12

ملخص: بالنظر إلى جغرافية بلاد المغرب، أو ما كان يعرف بالغرب الإسلامي، فإننا نجد على البحر الأبيض المتوسط، أو ما كان يعرف حسب التعبير الخلدوني ببحر الروم، كما أن جزءا كبير من ترابه ممتد في الصحراء الكبرى، هذه الوضعية الجغرافية فرضت عليه حتمية معينة، روجت إليها الكتابات الكولونيالية، فجعلت بلاد المغرب مرتبطة بالصحراء، ومنشدة إليها، وكان بذلك الإنسان المغربي مرتبط بالفرس والناقة في معيشه اليومي، على غرار ما كان سائدا في الجزيرة العربية، وبذلك يكون بعيدا كل البعد عن التفكير في نسج علاقة مع البحر المتوسط، فهذه الفكرة تروج لها العديد من الكتابات الأوروبية وبعض الأقلام المحلية، خاصة أولئك الذين لم يعملوا على نقد الأطروحة الكولونيالية في بعدها التوسعي السالب للهوية والخصوصية، فهم يروجون أن المغاربة لم تتكون لديهم أي ثقافة بحرية على مر تاريخهم، وأن الملاحة البحرية عندهم ظلت بسيطة لم تتطور، وأن التقنيات التي استعملوها لم ينتجونها، وإنما أخذوها من أولئك الذين قدموا إلى بلاد المغرب خاصة من قبل الإغريق والرومان الفرنسيين فيما بعد، ويستدلون على ذلك بغياب المصطلحات الدالة على البحر في معاجم اللغة العربية، وأن لفظة البحر تطلق على العالم وعلى البحر والنهر... وأن العواصم التي أسسوها كانت عواصم برية بعيدة كل البعد عن البحر، مثل: القيروان وبجاية وتلمسان وفاس وسجلماسة ومراكش، فإلى أي حد يمكن الأخذ بهذا الزعم الكولونيالي؟ وكيف يمكن نقد هذه الرواية؟ هذا ما نحاول مناقشته في هذه المقالة.

الكلمات المفتاحية: الغرب الإسلامي؛ مغاربة العصر الوسيط؛ البحر؛ الكتابات الكولونيالية.

Abstract: Geographically, the Maghreb, well knows as the countries of the Islamic West in the Medieval Era, is bordered by the Mediterranean Sea to the north and the Atlantic Ocean to the West. Also, part of its terrain extended in the Sahara Desert to the South. This geographical determinism has prompted many colonial and post-colonial research to stress that the Moroccans of the Middle Age had strong relationship with the desert and Camels, and they had no historical relationship with the sea, since they focused in their culture on describing desert, Camels and Sahara.

These ideas which were mentioned among the colonial writers, were adopted by many Moroccan researchers. They are promoting that the Moroccans had not authentic maritime culture, in other words, this latter was taken from the Greeks, the Romans, and the French. Their argument for that was the absence of marine culture in the Arabic language, we find the word sea used to refer to the river and valley and to those who have great knowledge. And their historical capitals example Kairouan, Tiaret, Tlemcen, Fes Marrakesh, Sijilmasa were capitals of countries associated with the Sahara more than with the sea.

And that the Moroccans were afraid of the sea and traveling on ships. So to what extent can the colonial claim be considered credible? How can these narrations be criticized? These questions will be discussed in this paper.

Key Word: the Sea, Islamic West, the Mediterranean, Colonial Writings.

مقدمة: نظريا فإن توفر بلاد الغرب الإسلامي على واجهتين بحريتين: البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)، والمحيط الأطلسي (البحر المحيط)، يمكن من الوقوف على الثقافة البحرية التي كونها المغاربة منذ القديم عن البحر، وركوبه وثرواته وأنشطتهم اليومية المتصلة به. إلا أنه لا نكاد نجد من المعلومات عن الثقافة البحرية لمغاربة العصر الوسيط إلا النزر اليسير، ولم تحفل أمهات الكتب التاريخية والتراثية بمادة علمية يمكن من خلالها تتبع النشاط البحري عند مغاربة الفترة الوسيطة بما يلزم من العلمية.

وهذه الوضعية دفعت العديد من الباحثين، إلى وصف الثقافة المغربية والإنسان المغربي بأنهما مرتبطان بالبر أكثر من ارتباطهما بالبحر، شأنهم في ذلك شأن سكان الجزيرة العربية، فكان المغاربة والعرب على قدم المساواة في عدم اهتمامهم بالبحر، الذي ظل

يشكل خطراً حقيقياً، وشبهاً مخيفاً، يحذرون من ركوبه، بل ويمنعون السفر عبره، وأنهم برعوا في وصف الصحراء والناقة والفرس والتغني بهم أكثر مما وصفوا البحر وركبه.¹ فكيف دبر مغاربة العصر الوسيط علاقتهم مع البحر؟ وأي ثقافة بحرية تكونت لديهم من جراء اتصالهم اليومي بالبحر؟ وكيف تعاملوا مع ثرواته؟ وأي صورة رسموها عن البحر وهم يقبلون على ركوبه؟ وهل برز منهم من ركب البحر وذاع صيته؟ أم أنهم كانوا مستهلكين للثقافة البحرية؟ وأنهم ولّوا وجهتهم نحو الداخل ضاربين بذلك صفحاً عن الاتصال بالبحر ومخر عبايه؟

1- المغاربة والبحري في الكتابات الكولونيالية: عموماً، فإن مسألة اتصال المغاربة بالبحر ما كان لها أن تثار لولا انتباه العديد من الباحثين الغربيين لهذه النقطة، عند دراستهم للتراث العربي عامة والمغربي على وجه الخصوص، واستنتجوا مجموعة من الخلاصات التي كانت في كثير من الأحيان متسرعة، ولم تطلع على كل المظان التراثية، كما أنها لا تصمد أما (أمام) البحث العلمي الرزين.

وللأسف فإن عدداً من الباحثين² تلقفوا هذه النتائج، وأضحت عندهم من المسلمات، فراحوا يرددون بعد المغربي عن الاهتمام بالبحر وشؤونه، واستغلال ثرواته. يرى برينو (Brunot)، أن المغاربة تكونت لديهم عقدة الخوف من البحر والمحيط وذلك منذ القديم³، ومعتمده في هذا الزعم بعض الإشارات اللغوية، حيث يرى أن العربية تطلق كلمة البحر على النهر الكبير والعالم الكبير، كما أن مؤرخهم عند وصفهم "المحيط الأطلنطي" فإنهم يسمونه تارة بالبحر المظلم وتارة أخرى ببحر الظلمات وثالثة بالبحر المحيط، وهو ما يدل على الخوف الشديد الذي تكون عندهم نحو البحر، حتى إنهم بالغوا في تقديسه إلى درجة منع سب البحر، ولعل هذا ما طبع المخيال الجمعي المغربي فرسم صورة للبحر صبغها بشق ألوان التقديس والاحترام⁴، ومن ثم لم يكونوا بحارة ولا مغامرين بحريين.

وفي مكان آخر يرى الباحث نفسه أن "البربر" لا يعرفون في الغالب المراكب التجارية وأن وسائل صيدهم ظلت بدائية⁵، ولم يطوروا تقنياتهم الملاحية لا سيما ما تعلق منها بترصيف الموانئ، كما أن تجارتهم ظلت مرتبطة بالأجانب الذين عملوا على تنشيطها، بل حتى عمليات القرصنة التي اشتهروا بها كان القائمون عليها إما أتراكاً، وإما أندلسيين⁶، وعليه لم يكن المغاربة سوى بحارة متواضعين.

ويرى مونلو (Monlan)⁷ أن المغاربة وبعقليتهم البدوية، شكل البحر لديهم رعبا كبيرا حتى إنهم نزعوا إلى تقديسه والخوف من ركوبه، فشاع عندهم أن من ركب البحر مفقود لأن احتمال عودته ضعيف جدا، وحتى إذا حالفته الظروف ورجع لأهله سالما كان كمن ولد من جديد.

ويحاول مونلو أن يفسر هذا الإعراض عن ركوب البحر، فيفترض أن طبيعة المنطقة هي التي تحكمته في ذلك بسبب قلة الأنهار الصالحة للملاحة، وأن شواطئ البلاد غير آمنة. كما أن عواصمهم التي كان لها دور كبير في صناعة تاريخهم كانت مدنا برية بعيدة عن البحر، ونذكر هنا: القيروان وفاس ومراكش وتاهيرت وسجلماسة، وأن بداية انفتاحهم على البحر وشؤونه كانت مع الفترة التي خضعت فيها البلاد للسيطرة الرومانية ووريثتها فرنسيا.⁸ أما روجي كواندرو (Roger Coindreau) فلا يختلف عن سابقه بشأن الأحكام التي كونها عن تعامل المغاربة والبحر وخوفهم الشديد منه، واعتبر القضية عادية بل ذهب إلى أنها وراثية توارثتها الأجيال⁹، وكان شاهده في ذلك ما أورده صاحب المقدمة.

ولا شك أن ما ورد عند ابن خلدون خاصة في المقدمة، في كثير من الأحيان لم يفهم على الوجه الصحيح، وبالأخص عندما تفصل أقوال ابن خلدون عن سياقها وتتخذ مجزأة بعيدة عن السياق العام للنص، ولعل الجهاز المفاهيمي الذي وظفه ابن خلدون كان حائلا بين الباحثين والتواصل السليم والمقدمة، ويحاول كواندرو أن يفسر هذا الرعب الوراثي الذي تكون للمغاربة بأميرين أساسيين:

- العظمة الخفية للمحيط الأطلنتي:

- طابع التمتع للشواطئ الأطلنتية: وبخصوص النقطة الأولى والمتعلقة بتلك الرهبة التي تكونت عند المغاربة نحو المحيط الأطلنتي، فيلمسها كواندرو في تلك العظمة التي نسجها المغاربة منذ القديم في مخيالهم الجمعي عن المحيط الأطلنتي بما كان يمثلهم لهم من قوة ورهبة، فلم يتمكنوا من اكتشاف مجاهله، ولم يدركوا كنهه بل إنهم لم يتمكنوا من معرفة ما وراءه من الأمم والشعوب، وكأنه بالنسبة لهم كان المحيط الأطلنتي يشكل نهاية العالم، وهذا لا يمكن أن يفسر إلا من زاوية الرعب الوراثي الذي تكون للمغاربة نحو هذا المحيط¹⁰. ويستمر كواندرو في عملية تفسير رهبة المغاربة من المحيط الأطلنتي بالبحث في اللغة المتداولة التي تطلق لفظة المحيط على كل ما يتسم بالعظم والقوة، كأن تسمي العالم

المقتدر الذي حصل علما كثيرا فتسميه بالمحيط، كما تنعت اللغة العربية بالمحيط لكثرة مفرداتها وسعة معانيها، وبين كل هذا وذاك ينعت المحيط الأطلنطي ببحر الظلمات لتعذر ركوبه واكتشافه، والاستفادة من خيراته.¹¹

وفي مكان آخر يرى أن المغاربة، وإن ركبوا البحر، فإنهم يبدون رفضا كبيرا لاستعمال التقنيات الملاحية: ببيكار، خرائط، ومقاييس الزمن... وبالتالي: " لا يمكنهم مع ذلك إدراك الملاحة التنجيمية، ولا يمكن لأحسبهم سوى استعمال الملاحة التخمينية"¹²، ومن ثم ظلت ملاحظتهم بدائية ولم تعرف تطورا ملحوظا قياسا بما ستشهده الدول الأوروبية خاصة الجمهوريات الإيطالية وإسبانيا والبرتغال من ثورة بحرية انطلاقا من ق15م، وصنع سفينة الكرافيل التي اعتبرت أعظم سفينة جابت المحيط الأطلنطي، وقادت الأوربيين إلى اكتشاف مجاهل العالم الجديد والهند في الفترة التي عرفت تاريخيا بالكشوفات الجغرافيا الكبرى، وقد تشبثوا بالملاحة البسيطة التي كانت تم بمحاذاة الساحل، ولا يمكنها أن تبتعد عنه وتغامر في الإبحار بعيدا عن الساحل، أو ما يعرف بالإبحار في أعالي البحار، الذي ظل مجالا يحتكره البحارة الأوربيون الذين طوروا سفنهم ووسعوا مجال استخدام الآلات البحرية التي تساعد على الإبحار، وتؤمن جزءا كبيرا منها، كما تقلل من هامش التخمين والإبحار العشوائي وتقود إلى شاطئ النجاة.¹³

2- المغاربة واتصالهم بالبحر: وهكذا نسجل انطلاقا مما سلف، أن الذين تناولوا موضوع المغاربة والبحر من الأوربيين لا يتوانون عن ترديد عبارات أوضحت من المسلمات لا يمكن نقضها من قبيل تقديس المغاربة للبحر، والاعتقاد في قوة خفية تتحكم في البحر إن لم يتم إرضائها بتقديم مختلف القرابين.¹⁴

لكن الذي يلاحظ على هذه الكتابات، أنها جاءت لتغطي مرحلة قصيرة من تاريخ الدولة المغربية الضارب في القدم، فروجي كواندرو خصص دراسته لقرصنة سلا في الفترة التي انتعشت فيها ظاهرة القرصنة السلاوية الرباطية بمصب أبي رقراق، مستفيدة من وصول الأسر الأندلسية المهاجرة قصرا إلى المغرب عقب سقوط آخر معاقل الأندلس، وفي مدينة سلا أسس السلاويون جمهورية ستستفيد من الخبرة الأندلسية في مجال الثقافة البحرية على مستوى صناعة السفن وتكوين البحارة واستخدام تقنيات الإبحار لتطوير خبرتهم البحرية التي أقضت مضجع السفن العابرة للمحيط الأطلنطي.¹⁵

بينما حاول برينو البحث في الموروث الثقافي واللغوي لمنطقة الرباط سلا خلال فترة الحماية الفرنسية والإسبانية على المغرب، إلا أن أحكامه كانت عامة تنسحب على كل التاريخ المغربي، وكأن المغاربة لم يكن لهم أي اهتمام بالبحر وشؤونه، حتى أن برينو يربط تعلم تقنيات الملاحة عند المغاربة بالمساعدة الخارجية¹⁶، إلا أنه لا يفصح عن مكان هذه المساعدة بالبحر هل جاءتهم من المشرق أم من الأندلس أم من الغرب؟

قد نستبعد المشرق باعتبار أن أحكام الأوربيين في الاهتمام بشؤون البحر تجمع بين المغاربة والمشاركة على حد سواء، إلا أن هذا الزعم تفنده الشواهد التاريخية التي أمكننا الاطلاع عليها، فالذين تناولوا موضوع البحر في الثقافة البحرية عند العرب، غالبا ما يركزون حديثهم على عرب الحجاز، ناسين أو متناسين عرب الأطراف الذين كان لهم حظ وافر من المعرفة بالبحر وشؤونه، من ثم كان الحكم على حضارة العرب بأنها برية بالنظر إلى موقع مكة والمدينة البعيدتين عن البحر.

وبعودتنا إلى الشعر الجاهلي الذي أُرِّخَ لحياة العرب القدماء، ودَوَّنَ أيامهم وخَلَّدَ أمجادهم، فبات من الضروري الرجوع إليه لمعرفة حجم حضور البحر عند شعراء العصر الجاهلي، ولعل أول شاعر نقف عنده هو امرؤ القيس الذي أورد في معلقته بيتا يكاد يكون صريحا في وصف البحر عندما قال:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أُرْخَى سُدُولُهُ **** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي¹⁷

فكلمة البحر واردة بالبيت الشعري صراحة، وقد استعملها الشاعر في لحظة تراحم الأفكار والهموم، ولم يجد في الطبيعة وما حوله أبغ تعبير عن حالته النفسية من استدعاء البحر، الذي تتشكل عظمته عند لحظة تعاظم أهواله تشبيها بينه وبين الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر.

ورغم الاحتياطات الكثيرة التي وجب أخذها عند التعامل مع النصوص الشعرية التي تستعمل أوصافا جزلة ومحسنات بديعة، إلا أنه يمكن القول إن البيت الشعري جاء واضحا، يعكس حالة نفسية عاشها الشاعر الذي من المرجح أنه كان له اتصال بالبحر، فلا يمكن للشاعر أن يستدعي هذا التشبيه إلا إذا كان فعلا سافر بحرا وركب موجه، وعاش تجربة السفر على متنه.¹⁸

أما إذا تتبعنا الكلمات الدالة على البحر في معاجم اللغة العربية وقواميسها، فإننا نظفر بمعجم غني إما عربي الصياغة أو مشتق من اللغة الفارسية أو اللاتينية¹⁹، وهو ما يعطينا دليلا قويا على سعة الثقافة البحرية التي كونها العرب عن البحر وثوراته، ولعل هذا ما يفند مزاعم أحد الباحثين الفرنسيين عندما أشار إلى ضعف التراث اللغوي الدال على البحر في قواميس اللغة، مشيرا إلى أن فعل "ركب" يفيد ركوب الفرس أو إحدى الدواب، والفعل نفسه يستعمل للدلالة على السفر بحرا²⁰، ولا شك أن برينو عندما يبحث عن المرادفات البحرية في اللغة العربية كان منطلقه حملته الفكرية الغربية، وما تحتويه اللغة الفرنسية خاصة واللاتينية عامة من مصطلحات بحرية.

وبالرجوع إلى كلمة بحر في اللغة العربية، فإنها تفيد الماء الكثير²¹، أما كلمة اليم التي وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع²²، والتي يراد بها البحر، فإن صاحب التاج يجعلها سريانية²³، كما وجدت ألفاظ أخرى تعبر عن البحر مثل: العيقة²⁴ والعدان²⁵ والقاموس²⁶ ولجي²⁷ والدأمان والكافر والحنبل والخضم والعليم²⁸، أما بعض البحر أو جزء منه فعبر عنه بشاطئ البحر²⁹، كما استعملت لفظة سيف البحر التي تعني الساحل³⁰.

يتضح جليا أن اللغة العربية حوت ألفاظا عديدة تدل على البحر، صحيح أنها ليست كثيرة ولكن تسمح بتكوين صورة واضحة عن مدى اهتمام العرب بالبحر، فهل يمكن أن يكون المغاربة قد تأثروا بهذه الثقافة العربية البحرية مع تدفق الطلائع الأولى للفاحين نحو الشمال الإفريقي؟

لا يمكن الجزم بالجواب الشافي عن هذا السؤال، لأن الفاتحين الأوائل لبلاد المغرب، قدموا برا، وقد تجنبوا الطريق الساحلي حتى لا يصطدموا ببقايا الوجود البيزنطي بالمنطقة، كما أن الفاتحين أثروا في المنطقة على مستوى اللغة العربية التي بدأت تنتشر تدريجيا صحبة الدين الإسلامي وبعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية، أما ما يتعلق بالثقافة البحرية، فلا تسجل المصادر التاريخية أي تأثير للفاحين على ما تعارف عليه الأمازيغ في إطار تعاملهم اليومي مع البحر.

وهنا وجب أن نستحضر المعارضة الشديدة التي أبدتها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب لركوب البحر والغزو فيه، رغم الإصرار الشديد الذي كان يبدية معاوية بن أبي

سفيان الذي راجع الخليفة أكثر من مرة بشأن السماح له بالغزو في البحر سواء نحو جزيرة صقلية أو نحو سواحل الشمال الإفريقي.

وموفق عمر بن الخطاب هذا، وجب فهمه في سياقه التاريخي وفق مقارنة كانت تحرص أن الخليفة لم يكن يستحسن ركوب البحر لغلبة الغرر عليه وأن ذلك "محمول على الاحتياط وترك التفرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها"³¹، أما الطاهر بن عاشور فيرى أن عمرا كان يخشى تأخر وصول نجدات المسلمين أثناء الغزو، لأن السفن قد يتأخر وصولها إذا لم تسعفها ظروف الإبحار³²، فلا يمكنه أن يغامر في قضية غير محسومة قد تنعكس نتائجها السلبية على مستقبل الدولة الإسلامية، وهذا يفسر أيضا بأن العرب وبشكل خاص سكان الجزيرة العربية اتصلوا بالصحراء أكثر من اتصالهم البحر.

فاختيار عمر هذا، لا يعني أنه كان يرفض الغزو في البحر، وإنما كان مراده عدم الزج بالمسلمين في معركة غير مأمونة العواقب، ولعل هذا ما يفسر كيف أن الفاتحين الأوائل استطاعوا تقويض دعائم الإمبراطورية الفارسية، بينما استمر صراهم مع البيزنطيين خاصة في سواحل البحر المتوسط، وذلك بسبب القوة البحرية التي كانت تمتلكها بيزنطة على مستوى السفن المتنوعة والقوى البحرية المدربة.

وبصفة عامة، فمؤرخو العهد الاستعماري ربطوا بداية الاهتمام المغربي بالبحر بمجيء الأوربيين خاصة الفرنسيين، فالى أي حد يمكننا القبول بهذا الزعم، وهل تصمد أفكارهم أمام النقد التاريخي للطروحات الكولونيالية؟

بالنسبة لعملية تقديس البحر، فلا شك أن هذه الظاهرة تكاد تكون عامة عند مختلف الشعوب التي دأبت منذ القديم على تقديس قوى الطبيعة التي تعتقد فيها جلب الخير ودرء الشر³³.

أما بخصوص بعد العواصم المغربية في القديم والعصر الوسيط عن البحر، فهذا صحيح بالنسبة للقيروان وتلمسان وفاس ومراكش، لكن الأمر غير مقبول عندما يعمم على كل المدن المغربية، فصحيح أن القيروان وتلمسان وفاس ومراكش وسجلماسة، مدن قامت بدور متميز في التاريخ الدولة المغربية، وأرخت لنشوء دول وحضارات ارتبطت بالصحراء.

لكن هذا الزعم سرعان ما يتهاوى، عندما نحصي المدن البحرية التي كانت إما عواصم لدول مغربية، أو مدنا نشيطة من حيث التجارة البحرية والعلاقات مع العالم المتوسطي،

فأين نضع المهديّة التي أسسها عبد الله الشيعي بإفريقية، وبجاية التي كانت عاصمة للصنهاجيين وقامت بأدوار متميزة في ربط الإمارة الزناتية بالقوى البحرية في المتوسط، وأين نموقع مدينة نكور عاصمة بني صالح وسبتة التي ارتبطت بالبحر وفضالة عاصمة البرغواطيين؟ ألم تكن هذه المدن عواصم لدول أسست على السواحل وارتبطت بالبحر أيما ارتباط؟

هذه المدن وغيرها أدت أدوارا متميزة في تاريخ المغرب في العصر الوسيط، ومنها من كانت عاصمة لدول عظمى، وأرخت لعلاقات متميزة مع القوى التجارية في البحر المتوسط، ويمكن هنا أن نقصر الحديث وحول مدينتي سبتة وبجاية، فبالنسبة للأولى- مدينة سبتة- فقد شهد أكثر من واحد من المؤرخين، وبخاصة كتب الجغرافيا أن المدينة كانت على اتصال دائم بالبحر، حتى أنه كادت أن تعد من مدن العدو الأندلسية أكثر من مدن المغرب الأقصى بالنظر لارتباطها بالمدن الساحلية مثل ألمرية ومالقه والجزير الخضراء وجبل الفتح، كما أن المدينة كانت ترابط بدار صناعتها وبالمرسى مختل الوحدات البحرية للأسطول المرابطي³⁴، واحتكرت تجميع كل الوحدات البحرية على عهد الموحدين، وعبرها كانت الدولة المغربية تأمن الاتصال بين العدوتين، ومنها كانت تنطلق مختلف الوحدات إما للتجارة أو للغزو.

أما مدينة بجاية عاصمة الحماديين فقد نسجت علاقات تجارية وصداقة مع جزر البليار خاصة عند تغلب بني غانية عليها³⁵، ومع جزيرة صقلية والمدن الإيطالية خاصة بيزا وجنوة، إلا أنه يلاحظ أن البحر مثلما شكل نقطة قوة المدينة المغربية في العصر الوسيط، إلا أنه سيشكل في الوقت نفسه نقطة ضعفها، وذلك بالنظر لمناعة المدينتين سبتة وبجاية من الناحية البرية الشديدة التضرس، فلم تسجل كتب التاريخ أن المدينتين تم اقتحامهما من الجهة الجنوبية، فكانت المدينتان في مناعة دائمة بسبب وعورة التضاريس وصعوبة مسالكها، فلم تنفع معهما المحاصرة البرية لأنهما كانتا مرتبطتين بالبحر الذي كان يسهل وصول الإمدادات والعون، إما من جزر البليار أو من صقلية وأمن المدن الإيطالية، وهذه النقطة سيفطن إليها المرابطون والموحدون عندما عجزوا على اقتحامها برا³⁶، ولم تنفعهم سوى محاصرة المدينتين من الناحية البحرية، وقطع أي اتصال لمدينتين مع القوى الخارجية.

وفيما يتعلق ببرينو فيجب التنبيه إلى أنه باحث في اللغة واللهجات المحلية والدارجة المغربية، وقد أفادنا كثيرا في جمع ودراسة الدارجة المغربية التي كانت تستعملها ساكنة الرباط وسلا على عهد الحماية الفرنسية، إلا أن الأحكام التي خرج بها تتنافى والروح العلمية التي يجب أن يتحلى بها الباحث في العلوم الإنسانية.

فإذا كان النشاط البحري للمغاربة أو على الأخص سكان العدوتين الرباط وسلا قد شابه نوع من الضعف قياسا بالتطور البحري الذي عرفته أوروبا في هذه المرحلة، فإن ذلك لا يجب تعميمه على كل البلاد المغربية التي شهد في حقها أكثر من واحد من المؤرخين والباحثين على مدى التفوق الكبير المغاربة في الميدان البحري خاصة خلال العصور الوسطى.

وكثيرا ما يتم الاعتماد على ما ورد في رحلة ابن جبير وابن بطوطة والتجاني والمقري التلمساني، من أوصاف عن أهوال البحر وعدم الرغبة في ركوبه لغلبة الغرر في السفر عبره³⁷، فيتم الاعتماد عليها لتفسير خوف المغاربة من البحر، فمثلا يرسم ابن جبير³⁸ إبان الرحلة التي قادتته إلى المشرق العربي صورة مفزعة عن البحر عند تعاطم أمواجه، فيتضاعف الخطر، وتتقلص فرص النجاة، فلا يبقى أمام المسافرين سوى التضرع إلى الله لكي يخلصهم من هول ما يعيشون.

إلا أن هذا كله لا يرقى إلى مستوى نفي أي اهتمام للمغاربة بالبحر أو الخوف منه، ولعل هذه الحالة من الخوف تكاد تكون عامة وطبيعية وتنتاب كل من يقدم على ركوب البحر لأول مرة، بل قد تنتاب حتى من يكون متمرسا بركوبه خاصة إذا هال البحر وكثرت الأنواء وتعاطمت الأمواج، فكانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولعل رحلة هؤلاء الرحالة بحرا حجة قوية لصالح المغاربة وليس ضدهم، فلا يمكن لمن يخاف الشيء أن يقبل عليه حتى ولو كان الطريق البري غير مأمون العواقب.

إن علاقة المغربية بالبحر ضاربة في القدم، وقد أكدت الأبحاث الأركيولوجية التي أجريت في بعض المواقع الساحلية المغربية على هذا الأمر، وستستمر علاقتهم بالبحر عبر الفترات الزمنية المتعاقبة حتى سيطروا على الإبحار في البحر المتوسط³⁹، ولم تبدأ مرحلة الضعف والتراجع إلا في العصور الأخيرة.

ودائما في إطار اهتمام المغاربة بالبحر، فإن البحار المغربي بلغت شهرته الآفاق، عندما قام بحارة قادمين برحلات تجارية جابت شواطئ البحر المتوسط أيام الإمبراطور أوغسطس، ووصلوا إلى بلاد العرب، وكانت رحلاتهم معدة بشكل منظم⁴⁰، بل إن منهم من غامر في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي)، بقصد اكتشاف مجاهله ومعرفة حدوده والشعوب التي تسكنه.

كما ساهم البحار المغربي مساهمة فعالة في رد الحروب الصليبية، واكتسب شهرة سارت بها الركبان إبان إخراج الصليبيين من حصن أبله⁴¹، وكان المسؤول عن دار الصناعة التي تعد عمائر الأسطول وتسهر على إصلاح السفن بالإسكندرية أيام المماليك بحار مغربي اسمه إبراهيم التازي الذي أبلى البلاء الحسن في محاربة الصليبيين⁴²، من ثم شاع أن الفرنج لا يقهرهم إلا المغاربة الذين يجاورونهم في جزيرة الأندلس لمعرفتهم بهم، وقد يكون هذا هو الدافع الذي حمل الأيوبيين على إرغام المغاربة الذين وجدوا في مصر وبلاد الشام على العمل بالأسطول لمواجهة الخطر الصليبي⁴³.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي كان قائد أسطوله عبد السلام المغربي الذي وصف بالحنق والشجاعة، وظل متصلا بالبحر إلى أن توفي غريقا في حصار صور عام 583هـ/1187م⁴⁴، ولعل هذه المشاركة للمغاربة في الحروب الصليبية، هي التي حملت الصليبيين على التضييق على الحجاج المغاربة بمختلف أنواع المغارم، "فجزامهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم"⁴⁵.

وتبقى المساعدة البحرية التي طلبها صلاح الدين الأيوبي من المنصور الموحيدي خير دليل على تميز المغاربة في العصر الوسيط في الصناعة البحرية على مستوى توفير البنية التحتية للأسطول من سفن حربية متنوعة، وجيش بحري مزود بمختلف أنواع الأسلحة التي كانت تستخدم في القتال البحري.

لقد طلب صلاح الدين الأيوبي العون البحري من الخليفة الموحيدي لمحاصرة المد الصليبي الذي أخذ يشدد الخناق على العديد من المرافئ في بلاد الشام، ويفيدنا عبد الهادي التازي بتخريجه طريفة مفادها أن أحد الأطباء المغاربة وهو من أصل يهودي ويدعى موسى بن ميمون كان قد خبر الطب وفنونه، وخدم في الأندلس عند أمرائها وانتقل إلى فاس ومنها

رحل إلى المشرق ليكون ضمن حاشية السلطان صلاح الدين، وقد يكون هذا الطبيب هو من دل صلاح الدين الأيوبي على قوة البحرية الموحدية.⁴⁶

إلا أن الأساسي في هذه السفارة كانت النتيجة التي آلت إليها، حيث أشارت أغلب الروايات التاريخية أنها لم تحقق ما كان يأمله الأيوبيون، فرجع السفير خاوي الوفاض إلا من هديته الثمينة التي شملت ألف دينار عن كل بيت من قصيدة تجاوزت أربعين بيتا أورد منها المقرئ التلمساني ستة أبيات⁴⁷، وهدايا أخرى شملت مصحفين كريمين مندسوين، ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلا من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوسا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية، وسروج عدة ثقيلة.⁴⁸

وبصرف النظر عن نتيجة هذا الطلب، فهل استجاب المنصور الموحدى وقدم مساعدته البحرية للأيوبيين؟ أم امتنع عن ذلك؟ تبقى رواية ابن خلدون⁴⁹ حاجزا منيعا أمام الباحثين، خاصة وأنها تحدثنا عن تجهيز المنصور لمائة وثمانين أسطولا بعثها لصلاح الدين، ورغم أن ابن خلدون نفسه لم يكن مطمئنا إليها، إلا أن الرواية التاريخية لا ترد إلا برواية تاريخية أخرى، ويبقى طلب هذه المساعدة البحرية دليلا قويا على اختصاص المغاربة بالأسطول وقوتهم البحرية في البحر المتوسط.

أما بشأن الثروات السمكية، فإن المغاربة تعاملوا معها مثلما تعاملت معها مختلف الشعوب التي كانت لها منافذ على البحر، فقد أقبلوا على استخراج ثرواته السمكية بتقنيات تراوحت بين تقنيات بسيطة مثل الصيد بالثوب أو الرمح أو الصنارة، إلى توظيف تقنيات "متطورة" مثل الشباك والمصائد و، وكنت هذه العملية تتم في الساحل وفي أعالي البحار، حسب نوعية المركب وعدته التجهيزية.⁵⁰

وقد أفادنا الأنصاري بمعلومات ذات أهمية قصوى حول المضارب التي كانت بمدينة سبتة⁵¹، والتي وصل عدده إلى تسع، كان أعظمها مضرية أوليات⁵²، وكانت بعض هذه المضارب موجودة داخل المدينة في حين وجد بعضها بالخارج، هذا بالإضافة إلى المصايد التي تجاوزت الثلاثمائة مصيدة كانت منتشرة على طول ساحل المدينة، "وعدد ما وقفنا عليه من المصايد سوى ما لم نقف عليه مائتان وتسعة وتسعون مصيدة متفرقة من طرف بحر أبي السؤل... إلى مرسى موسى بل إلى مجشرة فرديو من أرض مصمودة من بحر الرملة المشار".⁵³

وقد حضرت الأسماك في الوجبات الغذائية لمغاربة العصر الوسيط⁵⁴، ووهنا وجب التنبيه إلى الفرق الذي كان في العادات المجتمعية عند المغاربة بين المدن الداخلية والمدن الساحلية، فالمدن التي كانت تطل على البحر كان تناول السمك حاضرا بقوة في خوان أهلها، وقد تفننوا في طرق طهي السمك، فهذا صاحب الاستبصار يورد شهادة في غاية الأهمية حول تناول سكان السواحل للسمك فيقول: "إنه ما اجتمع في مائدة رجل ثلاثة أشياء متضادة المواضع إلا في مائدة من يسكن قابس، يجتمع فيها الحوت الطري ولحم الغزال الطري، والرطب الجني"⁵⁵.

ويمكن أن نستأنس برواية صريحة للوزان حول ساكنة تغسة التي أقبل سكانها على تناول السمك بكثرة، حتى غدا وجبة ضرورية عندهم، وقد مكث الوزان بها ثلاثة أيام وسجل شهادته فيقول: "أن رائحة السردين تفوح من الجدران والأزقة"⁵⁶.

بينما الساكنة الداخلية وفي الصحراء قلما يقبلون على تناول السمك، وهذه عادات غذائية ما تزال إلى يومنا هذا مستمرة في المجتمع المغربي. وكان إعداد أطباق السمك تتم في محلات خاصة أعدت لهذا الغرض يختلف إليها الناس ليجدوا فيها خير أكلة من قبل طبّاخين ماهرين قد احترقوا هذه المهنة مدة طويلة، ونملس من خلال ما أورده أحمد بن عبد الرؤوف نوعا من التجاوز الذي كان يقع فيه الطباخون، وهو الأمر الذي نبه إليه المحتسب ليأخذ حذره منهم، ويمنعهم من عدم المتاجرة إلا في الطري من السمك، ولا يطبخوا إلا الجيد منه، ويلزمهم بعدم خلط البائت من السمك بالطري.⁵⁷

فهذه النماذج توضح لنا بما يدع مجالا للشك مهارة المغاربة فيركوب البحر وتمرسهم بتقنياته، وأن أحكام الباحثين الغربيين من أمثال كواندرو وبرينو ومونلو وغيرهم تظل معزولة ولا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها على كل مراحل حكم الدولة المغربية، ولعل ابن خلدون كان واضحا عندما أشار إلى أن الدولة الموحدية بقوتها العسكرية البرية والبحرية وقفت سدا منيعا أمام الحملات البحرية الصليبية المتجهة نحو المشرق، فقد تمكنت البحرية الموحدية من مراقبة الإبحار في كل البحر المتوسط.⁵⁸

الهوامش:

1- روجي كواندرو، قراصنة سلا، ترجمة محمد محمود، نشر جامعة محمد الخامس، 1991، ص 47 و 48/

Louis Brunot, la Mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat Salé, Paris 1920, p.27 28 66



- 2-عبد المجيد القدوري، البحر في المتخيل المغربي، مجلة الملتقى، عدد4، السنة 1999، ص3. وعبد العزيز بن عبد الله، دور الملاحة المغربية في البحار طوال ألف عام، مجلة المناهل، عدد32، سنة1985، ص10 و11.
- 3-Brunot, op. cit, p1 et 240.----4-Ibid,p11-12.----5-Ibid,p240.----6-Ibid,p242.----7-Jean Monlau, les Etats Barbaresques, Paris,1964,p14.----8-Ibid,p13-14-17.
- 9-قراصنة سلا، ص17 و18.----10-كواندرو، ص47.----11-كواندرو، الصفحة نفسها.----12-قراصنة سلا، ص47.----13-كواندرو، ص47.----14-نفسه.----15-نفسه، ص184.----16-نفسه، ص18.----17-ابن عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985، ص22.
- 18-وقد وصف طرفة بن العبد تمايل السفينة وهي تتقاذفها الأمواج بعبارات دقيقة، يمكن الرجوع إليها ضمن مصنف الزوزني، ص39.
- 19-عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب، دار النهضة العربية، 1996، ج1، ص13.
- 20-Brunot, la Mer., op. cit, p246.
- 21-محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، المطبعة الخيرية، مصر 1306هـ، مادة بحر، ج3، ص270.
- 22-سورة الأعراف، آية 135، وسورة طه، آية 77، وسورة القصص، آية 6.
- 23-الزبيدي، ج9، ص114.----24-الزبيدي، مادة عيق، ج7، ص31.----25-نفسه، مادة عدن، ج9، ص275.----26-نفسه، مادة قمس، ج4، ص223.----27-نفسه، مادة لج، ج2، ص92.
- 28-جواد عي الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد، ط1، 1971، ج7، ص244.
- 29-الزبيدي، مادة شطأ، ج1، ص80.----30-سورة الأعراف، آية 135، وسورة طه، آية 77، وسورة القصص، آية 6.
- 31-نفسه، مادة سيف، ج6، ص149.----32-أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن...، دار الكتب المصرية، القاهرة 1954، ج1، ص195.----33-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار القومية للنشر، 1984، ج2، ص82.
- 34-Halima Ferhat, Démos et Merveille, L' Atlantique dans l' imagine Marocain Médiéval, in le Maroc et l « Atlantique, Unv Med V.Rabat, colloque N21,p21-32-35
- 35-أحمد بن تاووت، تاريخ سبتة، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982، ص53.----36-الاستبصار، ص129.----37-الاستبصار، ص129.
- ابن خلدون، ج6، ص297.----38-أحمد المقرئ، نفح الطيب...، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968، المجلد1، ص33.
- 39-ابن جبير، ص210.----40-ابن خلدون، المقدمة، ص198.----41-خوان برنيط، "هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية، ترجمة محمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسبانية العربية، عدد1، سنة 1953، ص82-83.
- 42-المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص245.----43-عبد العزيز بن عبد الله، دور الملاحة البحرية في البحار طوال ألف عام، مجلة المناهل، عدد32، ص89.----44-جواتين، ص245.----45-ابن الأثر، الكامل في التاريخ، تحقيق جماعة، ط4، دار الكتب العربية، بيروت 1983، ج11، ص210.
- 46-ابن جبير، ص210.----47-عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي من أقدم العصور إلى اليوم، مطبعة فضالة، المحمدية 1986، مجلد، ص6.----48-أحمد المقرئ، نفح الطيب...، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت. 1968، ج1، ص444.
- 49-ابن خلدون، ج6، ص330.----50-المقدمة، ص198.----51-الاستبصار، ص46، المعيار، ج8، ص189. محمد الشريف، سبتة، ص34.
- 52-الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار، تحقيق عبد الوهاب بمنصور، ط2، الرباط. 1983، ص51.
- 53-أوليات: أحد أنهار مدينة سبتة من الجهة الشرقية، محمد الشريف، ص51، هامش رقم 106.
- 54-الأنصاري، ص32.----55-ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان، تحقيق محمد شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1984، ص200.----56-ابن عبد ربه الحفيد، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، الدار البيضاء، 1985، ص113.
- 57-الوزان، ج1، ص327.----58-أحمد بن عبد الرؤوف، ثلاث رسائل في الحسية، جمع برفنصال، القاهرة. 1955، ص95.
- ابن خلدون، المقدمة، ص199.